

أم كلثوم.. وأنا



نواء د. سمير فرج



19 يوليو 2018

أعتبر نفسي واحداً من جيل المحظوظين، الذين عاصروا عمالقة الفن المصري، عبدالوهاب، وعبدالحليم، ونجاة، وشادية، وعلى القمة تربعت، كوكب الشرق، أم كلثوم، ليس في مصر، فقط، وإنما في أرجاء الوطن العربي كله. اعتلت عرش الغناء، ووحدت الأمة العربية، من الخليج إلى المحيط، في الخميس الأول من كل شهر، حول الراديو للاستماع لحفلها الشهري، فضلاً عن الوافدين من جميع أنحاء الجمهورية، ومن البلاد العربية، لحضور الحفل، ومن بينهم والدي، رحمة الله عليه، الذي طالما تمنيت، في طفولتي، أن يصطحبني معه يوماً، لولا اقتصار الحضور على الكبار فقط.

ومرت الأيام، والتحقت بالكلية الحربية، وفاجأني أحد أصدقاء عائلتي، من المقيمين بالقاهرة، بدعوتي لحضور حفل أم كلثوم، مع حفظ الألقاب، على مسرح سينما قصر النيل في القاهرة، فكانت تلك واحدة من أجمل مفاجآت حياتي. اليوم يتحقق حلم طفولتي، الذي لطالما داعب خيالي وأنا طفل صغير في بورسعيد، كم تمنيت أن أراها رأى العين، بحضور إحدى حفلاتها، كم تمنيت ألا أكتفى بالاستماع إليها في الراديو. كم تمنيت أن أرى بعيني، ما كنت أسمع عنه يوماً من أبي، عن روعة حفلاتها، وأناقة الحضور، الذين يرتدون أحلى ثيابهم، لحضور أهم حدث فني في الوطن العربي، كانت روائح برفانات السيدات والرجال، تستقبلك على الباب الخارجي للحفل، وكانت أناقتهم تضاهي أحدث صيحات الموضة في أوروبا، وتنظيم الحفل يتفوق على أي احتفال موسيقي عالمي.

اتخذنا مقاعدنا في منتصف القاعة، تقريباً، وانفرج الستار، وظهرت كوكب الشرق، غاية في الأناقة والوقار، كعادتها، وحيث الجمهور، الذي تعالي تصفيقه، لمدة لا تقل عن خمس دقائق، كانت كفيلة بأن تؤكد لي أن ما أعيشه، واقعٌ وليس خيالاً!.

شدت كوكب الشرق بأولى أغانيها، فى تلك الليلة، أنساك، تلحين الملحن الشاب، آنذاك، بليغ حمدي، وفى كل مرة تكرر مقطع «كان لك معايا.. أجمل حكاية فى العمر كله، تدخل سيده عشرينية، تجلس أمامي، فى نوبة بكاء شديد، فتحاول والدتها، الجالسة بجوارها، مواساتها بكلمات حانية، كفاية عياط.. عمر العياط ما هيرجعه. وازداد بكاء الشابة الصغيرة، مع كلمات الأغنية، سنين ومرت زى الثوانى فى حبك أنت، ولم تفلح محاولات الأم لتهدئة ابنتها المكلومة، التى بدا أن ارتداءهما السواد، ليس نابعاً من أناقتهما، فحسب، ولكن لحزنهما على فقيد غال. وانتهت الوصلة الأولى، ولم تعد هذه الشابة، أو والدتها، لاستكمال الوصلة الثانية من الحفل. ومنذ ذلك اليوم، ارتبطت أغنية أنساك» لدي، بمعنى الوفاء، وفى كل مرة أسمعها، أتذكر وجه هذه الأرملة الصغيرة.

وكان من ضمن ما غنت أم كلثوم، فى هذه الليلة، واحدة من أحب الأغاني لقلبي، وهى جددت حبك ليه، من كلمات أحمد رامى، والتى عرفت السبب وراءها، بعد ذلك الحفل بسنوات، خلال رحلتى مع الوفد المصري، لحضور الأسبوع الثقافى المصرى فى الصين، وخلال حديثى مع صديقى الدكتور فوزى فهمي، عميد أكاديمية الفنون، عن حبي لتلك الأغنية، حكى لى أن الشاعر الكبير أحمد رامى، كان متيماً بحب الأنسة أم كلثوم، بينما أعلنت هى خطبتها إلى شريف باشا صبري، خال الملك فاروق، إلا أن الأسرة المالكة، ثارت لذلك الخبر، رافضة أن ينضم للبلاط الملكى واحدة من عامة الشعب، واضطر الملك فاروق إلى رفض الزيجة، فكتب أحمد رامى هذه الأغنية، وأحببتها أكثر وأكثر، بعدما عرفت أن كاتبها عبر عن مشاعره فيها، ولم يعتمد، فقط، على ملكة نظم الشعر التى حباه الله بها.

أما الأغنية الثالثة، فكانت أنت عمري، والتى كنت أعشقها حتى ارتبطت فى وجدانى بذكرى أليمة على نفسى، فلم أقو على سماعها منذ ذلك الحين. تعود القصة إلى تخرجى فى الكلية الحربية، ضابطاً صغيراً، فى السابعة عشرة من عمري، لأنضم، فوراً، لصفوف القوات المصرية المحاربة فى اليمن. وبوصولى إلى صنعاء، تلقينا أوامر بتحريك الكتيبة لمنطقة اسمها بيت السيد، لفتح الطريق للقوات المصرية المحاصرة هناك. ووصلنا صباح يوم خميس، وبدأ الاستعداد للهجوم، ومع آخر ضوء للنهار، كُلفت بقيادة فصيلة، مكونة من خمسين جندي

مشاة ومدافع الدعم، لاعتلاء قمة التبة السوداء ونجحت فى مهمتي، ونشرت جنودى فى مواقعهم. إلا أن العواصف الثلجية فى تلك الليلة، جعلتنا محاصرين على قمة الجبل. وأغلقت جهاز اللاسلكي، حتى لا تنفذ بطارياته، لأننا لا نعلم متى سيأتينا الدعم والامداد. والتفنا حول الراديو الويلكو الصغير، الذى اشتريته من صنعاء، فور وصولى إليها. ونجنا فى التقاط موجات القاهرة، التى كانت ساهرة فى تلك الليلة، تترقب أنت عمري... لقاء السحاب بين صوت كوكب الشرق، وألحان موسيقار الأجيال، عبد الوهاب، وجاء صوت المذيع جلال معوض، يصف أجواء تلك الليلة الجميلة، التى تعيشها مصر، والعالم العربي، مع أجمل أغانى العصر، بينما نحن عالقون فوق جبال اليمن. فصارت، تلك الأغنية الرائعة، للأسف، تجلب إلى نفسى ذكريات أليمة، من حرب، وحصار، واستشهاد جنودى، وهى أسوأ لحظات تمر على أى مقاتل.

ومنذ أشهر قليلة، عندما أعلن الرئيس السيسي، أن مصر لن تشارك بقوات برية، ضمن قوات التحالف المقاتلة فى اليمن، شكرت ربي، وتنفست الصعداء، أننا لن نخسر، مرة أخرى، الآلاف من الشباب المصري، ولن يكون هناك ضابط فى مقتبل عمره، يسمع أغنية جديدة، فيكرها لأنها تمثل أحلك وأسوأ لحظات حياته.

Email: sfarag.media@outlook.com